# ٧ ـ الزندقة
## فى عهد المهدى العباسى
للأستاذ محمد خليفة التونسى

وقد أيد زرادشت عبادة النار وشجع على زيادة بناء بيوتها ، وذهب إلى أن يزدان فى حرب دائمة مع أهرمن لتنازع السيطرة على الكون ولاسيما الإنسان ، وأن من يعمل صالحاً يساعد يزدان فى النصر على أهرمن ، ومن يعمل سوءا يساعد أهرمن على يزدان ؛ ولذا دعا إلى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان مبالغاً فى التفاؤل فادعى أن النصر سيكون أخيراً ليزدان على أهرمن فينتصر الخير على الشر ويقضى عليه ، فتبطل المتاعب والفتن ، وعندئذ ينتهى العالم . وبين أن الإنسان بعد موته يحاسب على أعماله فمن رجحت حسناته عبر الصراط بسلام فلق يزدان وأنزله منزلا طيباً ، وأن من رجحت سيئاته وقع من الصراط فى النار وصار مستعبداً لأهرمن ، وأن من استوت حسناته وسيئاته صار إلى الأعراف ، وهذه الآراء تمثل آراء كثير من الطوائف الاسلامية منذ ظهر الاسلام إلى اليوم ، وقد ذهب إلى أن الخير هو الأصل وأن الشر طارئ ، ويؤيد ذلك الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل فقد قال : « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها فى خير محض ونعيم خالص ، فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن[1] » .

ويقول ماسبرو فى كتابه « تاريخ الشرق » ما خلاصته : « إن يزدان خلق كل شىء بكلمته ، واتخذ ستة أرواح لنفسه من طبقة سامية يعينونه على تدبير شؤون العالم وصونه ، وجعل لهم أرواحا دونهم يأتمرون بأمرهم وهم منتشرون فى العالم ، وحيال ذلك خلق أهرمن ستة أرواح شريرة تعادل أولئك الستة فى البطش وجعل لهم جنداً دونهم من الشياطين يطيعونهم فى أداء مايكلفهم به أهرمن من أعمال ، والقوتان دائماً فى نضال مستمر حتى ينتصر يزدان أخيراً على أهرمن وعندئذ تقوم القيامة » .

ومن تعاليمه وجوب إكثار النسل لإكثار جند يزدان فى نضاله أهرمن ووجوب إصلاح الأرض وزراعتها وتربية الحيوان والجد فى العمل ، وتحريم الصوم لأنه مضعف للقوة مثبط على العمل فى الحياة ، وتفضيل العمل على العبادة ، فمن يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويرويها أكرم ممن يتزلف بألف قربان أو يصلى عشرة آلاف صلاة أو يدعو عشرة آلاف دعاء .

ويزعم القلقشندى أن زرادشت : «ادعى النبوة وقال بوحدانية الله وأنه واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ، وأنه خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وأن الله تعالى هو الذى مزجهما لحكمة رآها فى التركيب ، وأنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، وأنه لا يزال الامتزاج حتى يغلب النور الظلمة ، ثم يخلص الخير فى عالمه وينحط الشر إلى عالمه وحينئذ تكون القيامة» . والقلقشندى يخلط صوابا بخطإ فيما زعم ، وأواخر زعمه تنقض أوائله ، ولا يصعب تمييز الخطأ من الصواب فى زعمه هذا إذا عُورض بما قدمنا فى بيان مذهب زرادشت وسيرته ، فزرادشت — وإن كان يعتقد بأن أصل الكون واحد هو النور — اضطر إلى القول فى تفسير الظواهر الكونية والحياة الإنسانية بقوة أخرى ضد النور هى الظلمة ونسب إليها الشر الذى هو ضد الخير ، فهو موحد فى أصل الكون ، ولكنه ثنائى فى تفسير مايجرى فيه ، ويزدان عنده ليس فى تدبير الكون وخلقه واحداً لا شريك له ولا ضد ولا ند ، بل له شريك وضد وند هو أهرمن ، فهو يقول كالكيومرثية بأصلين . ومما أسنده القلقشندى إلى زرادشت يشبه أن يكون محاولة للتوفيق بين القول بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام ، والقول بأصلين كما جاءت بها المذاهب الفارسية . وتشبه هذه المحاولة كثيراً رأى أبى العتاهية معاصر المهدى العباسى ومادحه وصاحب جاريته عتبة التى اتهم بالزندقة من أجلها حيناً ، ولأسباب غيرها أحياناً أخرى[1] فقد كان يدين بالتوحيد لله ويرى أن للكون طبيعتين[2] على ما سنفصله فى موضعه من هذا البحث إن شاء الله ، ففى مزاعم القلقشندى هنا ظلال لمذهب أبى العتاهية ، ومرجع الخطإ فى هذا

(١) قارن بين ما ذكره الشهرستانى هنا وما ذهب إليه الكاتب الفرنسى جان جاك روسو من أن الناس كانوا سعداء قبل نشوء الحضارة فلما نشأت ظهر الشقاء بين الناس ، وما رتبه على ذلك من وجوب الرجوع إلى الطبيعة فى كل شىء لاستعادة السعادة المفقودة .

(١) أغانى دار الكتب ج ٤ ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥ وانظر ترجمة أبى العتاهية فى هذا المصدر ص ١ — ١١٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٦ ص ٢٥٠–٢٦١ ( مطبعة السعادة سنة ١٩٣١ )

وغيره عند القلقشندى وأمثاله ممن لم يفهموا هذه الأقوال على أنها رموز — إنما هو الوقوف عند ظواهرها دون التأدى إلى البواطن المستسرة وراءها ، والجهل بالدوافع التى جعلت أصحابها ينزعون إليها من حيث يشعرون ولا يشعرون ، وقيامها على غيرها من المذاهب الدينية دون مراعاة الفوارق كما أشرنا إلى ذلك قبل .

أما اتهام القلقشندى وابن الأثير[1] زرادشت بادعاء النبوة فأرى أنه غير صحيح ، فابن خلدون يقول فيه إن المجوس يزعمون نبوته ولم يقل إنه ادعى النبوة ، وهناك أبو الريحان البيرونى ، وهو أولى أن تسمع شهادته فى هذا الموضوع ، لأنه أقدم من ابن الأثير والقلقشندى[2] وقد كان فارسياً عارفا بالثقافة الفارسية واللغة الفارسية ومؤلفاً بها واطلع بنفسه على بقايا الطوائف التى تدين بالزرادشتية وغيرها فى عهده واتصل بهم ، وهو أكثر استقصاء وإحاطة بهذا الموضوع من سائر المؤرخين الذين خاضوا فيه وليس لهم ثقافته ولا استقصاؤه ولا عبقريته ولا علمه الواسع بأخبار الأمم الشرقية فى عصره وقبله واطلاعـــه على حوادثها وأساطيرها وأخلاقها لسياحته فيها ومعرفته بلسانها واتصاله بها ووقوفه على كتبها وآثارها[3] . فلقد عقد هذا العالم الكبير فى كتابه « الآثار الباقية » فصلا عنوانه « القول على تواريخ المستنبئين وأممهم المخدوعين عليهم لعنة رب العالمين[4] » وذكر فيه كثيراً منهم سواء من كانوا قبل زرادشت مثل بوذاسف الذى ظهر بأرض الهند ومن كانوا بعده مثل مانى ومسيلمة ولم يعد فيهم زرادشت ، وكل ما ذكره فى هذا الفصل أن الملوك البيشداذية وبعض الملوك الكيانية ممن كان يستوطن بلخ كانوا يعظمون النيرين والكواكب وكليات العناصر ويقدسونها إلى وقت ظهور زرادشت[5] .

فزرادشت لم يدع النبوة كما نفهمها ، وما كان الفرس ليفهموها ولا ليتصوروها كما نفهمها ونتصورها نحن حين نسندها إلى الأنبياء الحقيقيين كموسى وسواه من أنبياء بنى إسرائيل وكمحمد صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ، أو حين نفهمها ونتصورها كما ادعاها المتنبئون كمسيلمة وسجاح والأسود العنسى ، فهذه نظرة فى أساسها يهودية ، لم تصل إلى فارس إلا فى القرن الثالث الميلادى على عهد مانى كما سنذكره مع سببه عند الكلام فيه ، وأمر آخر يؤيد ذلك هو أن هذا المذهب المنسوب إلى زرادشت ليس له من فضل فيه يتفرد به إلا التنقيح والبيان إذا بالغنا فى إسناد الفضل إليه فإنه قد قام بجولة فى أنحاء البلاد الفارسية للاستطلاع ومشاورة حكماء الفرس لإصلاح العقائد التى كانت قبله مملوءة بالخرافات وتطهيرها من الشوائب[1] ، ولا يتفق الادعاء بالنبوة التى تقضى بنزول وحى من السماء حاسم القول فى كل شىء مع هذه الرحلة والمشاورات الواسعة ، ومما يؤيد ذلك أيضا أن كيستاسف الملك الذى اعتنق الزرادشتية ، منع من تعليمها العامة[2] حيث منع تعليمهم كتاب زرادشت ، فالزرادشتية كما اصطفاها زرادشت كانت تحتوى على تعاليم وآراء لا قبل للعامة بفهمها واستساغتها فهى بذلك مذهب خاص وضع كثير منه للخاصة ، وذلك لا يتفق وآثار النبوة التى يقصد بهـا الناس عامتهم وخاصتهم ، وبذلك يكون كيستاسف قد سبق كثيرا من الفلاسفة الذين أوجبوا قصر بعض المعارف على الخاصة دون العامة لأن العامة لا تطيقها ولا تفيد منها وقد تتأذى وتؤذى بهـا : من هؤلاء الفلاسفة سقراط الذى أنكر الكتاب لأنه مفتوح لكل من يقع فى يده وآثر التعليم بالاختصاص ، ومنهم الفارابى الذى حرم تعليم العلم الرفيع على السفلة ، ومنهم الغزالى الذى نادى بأن من المعارف « المضنون به على غير أهله » وألف كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام » لأن الناس كما قال فى كتابه هذا ، وكما يعرف العارفون بعقول الناس قد خلقوا أشتاتا متفاوتين فى المدارك ، فهم كالمعادن تختلف صورة ولونا وخاصة ونفاسة ، وكذلك القلوب معادن فبعضها لمعدن النبوة ، وبعضها للولاية ، وبعضها للشهوة البهيمية والأخلاق الشيطانية ، وكل ما قدمنا ينفى ادعاء زرادشت النبوة وإن كان لا ينفى ادعاء أتباعه النبوة له ، والمرء غير مسئول إلا عما يقول ويفعل لا على ما يتقوله عليه الناس ويسندون إليه من أعمال

(١) ابن الأثير جـ ١ ص ١٠ .

(٢) البيرونى (من ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ الى رجب سنة ٤٤٨ هـ) وابن الأثير ( من سنة ٥٥٥ هـ الى سنة ٦٣٠ هـ ) والقلقشندي عاش فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع .

(٣) انظر ما كتبه الأستاذ بروكلمان C Brockelmann وفيدمان E wiedemann عن البيرونى فى دائرة المعارف الاسلامية وتعليق الأستاذ محمد بك مسعود عليهما فى الترجمة العربية ولا سيما ما نقله عن دائرة المعارف الفرنسية الكبرى .

(٤) و (٥) الآثار الباقية ص ٢٠٤ .

(١) دائرة المعارف للبستانى : مادة زرادشتي Zoroastre Zoroaster المجلد ٩ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢) ابن خلدون فى العبر : جـ ٣ القسم الأول ص ١٦١ وابن الأثير فى الكامل جـ ١ ص ١٠١ .

لم يأتها سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء ، ونحن نعلم أن العظمة فى كل زمان ومكان مبتلاة من هذه الناحية بأصدقائها ابتلاءها بأعدائها والعامية لا العظمة هى المسئولة عن كل ذلك .

وقد كان مما دعا إليه زرادشت إبطال عبادة الأصنام ووجوب التوجه للشمس أو النار عند الصلاة ، وعدم تدنيس العناصر الأربعة : النار والهواء والتراب والماء ، والشفقة على الحيوان ، والتزام الفضائل فى المعاملة ، والإمتناع ما أمكن عن أكل اللحم .

نجح زرادشت فى إقناع الملك كيستاسف بالدخول فى مذهبه وكان لذلك أثره من دخول الناس فيه وإيمان الشعب به ، ولا سيما أنه لم يكشف لهم منه إلا ما تطيق عقولهم ، وبذلك صارت الزرادشتية المذهب الرسمى فى البلاط الملكى والمذهب الذى ارتضته العامة طوعا وكرها . ومن أسباب نجاح الزرادشتية أنها ولا سيما ما كشف منها للعامة لم تبعد كثيرا عما كان عليه الفرس قبله ، فأعظم جهده ينحصر — كما قدمنا — فى التنقيح والتبيين لما كان قبله ، ومكانه فى ذلك لا يزيد فى رأينا كثيرا عن مكان الفيلسوف الهندى الكبير رابندرانات تاجور فى الفلسفة الهندية البرهمية ، حين نقحها وعبر عنها كما ارتضاها عقله . وما كتاب زرادشت الذى سنتحدث به بعد ، إلا كمثل كتاب تاجور «السدهانا» ودواوينه التى نظمها وعبر فيها عن آرائه وإحساساته تجاه الكون الذى يحبه ويعد نفسه جزءا منه ، فلا نبوة ولا تهجم على المشاكل الغيبية عند زرادشت ولا تاجور ، بل فلسفة وفن مردهما الشغف بالكون . والخطأ كل الخطأ أن ننتظر من البراهمة العوام أن يحدثونا حديثا صحيحا بفلسفة البراهمة كما فهمها تاجور ، وكذلك الخطأ فى انتظارنا أن نسمع حديث عوام الفرس بفلسفة الفرس القدماء كما ارتضاها زرادشت ومن شاورهم من حكماء فارس ، وكان كيستاسف سديد الرأى حين حرم تعليم العامة كتاب زرادشت . ومن أسباب نجاح المذهب الزرادشتى أنه كان ينزع إلى التفاؤل والإقبال على الحياة ويبشر العاملين فيها بالخير وهو فى هذا وغيره بل فى شخصيته إجمالا يشبه شخصية تاجور شبها قويا . ولا ريب عندنا فى أنه بهذا التفاؤل كان بشيرا معبرا تعبيرا صادقا عن الآمال القوية الطامحة التى كانت تتقل قلوب الفرس فى ذلك الحين ، وأنه كان ممهدا وصاحب فضل كبير على النهضة السياسية التى انتهت بقيام الملك الفارسى كورش الأكبر على تخليص الفرس من عبودية الميديين ، ثم مد حدود الدولة الفارسية الناشئة إلى خليج الفور ، وهدم الدولة الليدية فى آسيا الصغرى .

كان زرادشت بنهضته العقلية ، بشيرا وممهدا لهذه النهضة السياسية ، فقد استطاع — وهو ينقح تعاليمهم القديمة — أن يحدد لهم طريق النجاح فى الحياة ويدفعهم إلى حبها والكفاح فيها ، وبركز آمالهم ومطالبهم منها ، وربما كان ذلك أيضا سببا من أسباب إقبال الملك كيستاسف التطلع إلى المجد والسيطرة على الزرادشتية .

ولا ريب أن من أسباب نجاحه أنه عرف فى تجوله خلال البقاع الفارسية ومراجعة أعلام الفكر فيها نفسية قومه والحالة التى كانوا عليها ، والغاية التى يتوقون إليها ، كما كان لانتسابه إلى أصل ارستقراطى أثر كبير فى اتزان آرائه وذلك مما يسهل له حمل كيستاسف على مذهبه ، ولا ريب أن مما ساعده على ذلك فهم كيستاسف حالة شعبه وما يتوق إليه وما يطيق وما لا يطيق من مذهبه ، وكل أولئك مما ماز الزرادشتيين من غيرها من المذاهب التى بعدها على ما سنوضحه ، فأنالها من الذيوع والثبات وإقبال الخاصة والعامة عليها ما لم ينل غيرها .

(يتبع) محمد خليفة التونسى

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بادارة مخازنها بالعباسية لغاية الساعة الثانية عشرة ظهر يوم السبت الموافق ٣٠ مارس سنة ١٩٤٦ عن توريد أثاثات خشبية — حدايد مشغولة وابورات الغاز وأجزائها اللازمة للوزارة لعام ٤٦ / ١٩٤٧ والشروط بمخازن الوزارة وثمن القائمة ١٥٠ مليم مائة وخمسون مليما وتطلب على ورقة دمغة من فئة الثلاثين مليما لكل قائمة . ٤٩٩٦